

الكشاف

فإن قلت : ما الفرق بينهما من جهة المعنى قلت : أحدهما الإعلام بأنه جعل فيها طرقا واسعة . والثاني : يأتي حين خلقها خلقها على تلك الصفة فهو بيان لما أبهم ثمة محفوظا حفظه بالإمساك بقدرته من أن يقع على الأرض ويتزلزل أو بالشهب عن تسمع الشياطين على سكانه من الملائكة " عن آيتها " أي عما وضع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيرات ومسائرها وطلوعها وغروبها على الحساب القويم والترتيب العجيب الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة وأي جهل أعظم من جهل من أعرض عنها ولم يذهب به وهمه إلى تدبرها والاعتبار بها والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم ودبرها ونصبها هذه النصبه وأودعها ما أودعها مما لا يعرف كنهه إلا هو عزت قدره ولطف علمه . وقرء " عن آيتها " على التوحيد اكتفاء بالواحدة في الدلالة على الجنس أي : هم متفطنون لما يرد عليهم من السماء من المنافع الدنيوية كالاستضاءة بقمرها والاهتداء بكواكبها وحياة الأرض والحيوان بأمطارها وهم عن كونها آية بينة على الخالق " معرضون " .

" وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون " .
" كل " التنوين فيه عوض من المضاف إليه أي : كلهم " في فلك يسبحون " والضمير للشمس والقمر والمراد بهما جنس الطوالع كل يوم وليلة جعلوها متكاثرة لتكاثر مطالعها وهو السبب في جمعهما بالشموس والأقمار لمألا فالشمس واحدة والقمر واحد وإنما جعل الضمير واو العقلاء للوصف بفعلهم وهو السباحة . فإن قلت : الجملة ما محلها . قلت : محلها النصب على الحال من الشمس والقمر . فإن قلت : كيف استبد بهما دون الليل والنهار بنصب الحال عنهما ؟ قلت : كما أقول : رأيت زيدا وهندا متبرجة ونحو ذلك ؛ إذا جئت بصفة يختص بها بعض ما تعلق به العامل . ومنه قوله تعالى في هذه السورة " وهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة " الأنبياء : 72 أو لا محل لها لاستثناها . فإن قلت : لكل واحد من القمرين ذلك على حدة فكيف قيل : جميعهم يسبحون في فلك ؟ قلت : هذا كقولهم " كساهم الأمير حلة وقلدهم سيفاً " أي كل واحد منهم أو كساهم وقلدهم هذين الجنسين فاكتفى بما يدل على الجنس اختصاراً ولأن الغرض الدلالة على الجنس .

" وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإين مت فهم خلدون كل نفس ذائقة الموت ونبلوكم بالشر والخير فتنة وإلينا ترجعون " .

كانوا يقدرّون أنه سيموت فيشمتون بموته فنفى الله تعالى عنه الشماتة بهذا أي : قضى الله أن لا يخلد في الدنيا بشراً فلا أنت ولا هم إلا عرضة للموت فإذا كان الأمر كذلك فإن مت أنت

أَيَبْقَى هَؤُلَاءِ ؟ وَفِي مَعْنَاهُ قَوْلُ الْقَائِلِ : .

فَقُلْ لِلشَّامِتِينَ بِنَا أَفِيقُوا ... سَيَلْقَى الشَّامِتُونَ كَمَا لَقِينَا .

" وَنَبْلُوكُمْ " أَيِ نَخْتَبِرْكُمْ بِمَا يَجِبُ فِيهِ الصَّبْرُ عَنِ الْبَلَايَا وَبِمَا يَجِبُ فِيهِ الشُّكْرُ مِنَ النِّعَمِ وَإِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَتَجَازِيكُمْ عَلَى حَسَبِ مَا يَوْجَدُ مِنْكُمْ عَنِ الصَّبْرِ أَوْ الشُّكْرِ وَإِنَّمَا سُمِّيَ ذَلِكَ ابْتِلَاءً وَهُوَ عَالِمٌ بِمَا سَيَكُونُ عَنْ أَعْمَالِ الْعَامِلِينَ قَبْلَ وَجُودِهِمْ لِأَنَّهُ فِي صُورَةِ الْإِخْتِبَارِ . وَ " فِتْنَةٌ " مُصَدَّرٌ مُؤَكَّدٌ لِنَبْلُوكُمْ مِنْ غَيْرِ لَفْظِهِ .

" وَإِذَا رَأَاكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَفَرُوا " .

الذِّكْرُ يَكُونُ بِخَيْرٍ وَبِخِلَافِهِ فَإِذَا دَلَّتِ الْحَالُ عَلَى أَحَدِهِمَا أَطْلَقَ وَلَمْ يَقْيِدْ كَقَوْلِكَ لِلرَّجُلِ : سَمِعْتَ فَلَنَا يَذْكُرُكَ فَإِنْ كَانَ الذَّاكِرُ صَدِيقًا فَهُوَ ثَنَاءٌ وَإِنْ كَانَ عَدُوًّا فَذَمٌّ .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : " سَمِعْنَا فَتَى يَذْكُرُهُم " الْأَنْبِيَاءُ : 60 وَقَوْلُهُ : " أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ إِلَهَتَكُمْ " وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ عَاكِفُونَ عَلَى ذِكْرِ آلِهَتِهِمْ بِهَمِّهِمْ وَمَا يَجِبُ أَنْ لَا تَذْكُرَ بِهِ مِنْ كَوْنِهِمْ شَفَعَاءَ وَشُهَدَاءَ . وَيَسُوءُهُ أَنْ يَذْكُرَهَا ذَاكِرًا بِخِلَافِ ذَلِكَ . وَأَمَّا ذِكْرُ اللَّهِ وَمَا يَجِبُ أَنْ يَذْكُرَ بِهِ مِنَ الْوَحْدَانِيَّةِ فَهُمْ بِهِ كَافِرُونَ لَا يَصْدُقُونَ بِهِ أَصْلًا فَهُمْ أَحَقُّ بِأَنْ يَتَّخِذُوا هُزُوًا مِنْكَ فَإِنَّكَ مُحَقٌّ وَهُمْ مُبْطِلُونَ . وَقِيلَ مَعْنَى " يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ " قَوْلُهُمْ : مَا نَعْرِفُ الرَّحْمَنَ إِلَّا مَسِيلَمَةً . وَقَوْلُهُمْ " وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْ سَجَدَ لَمْ تَأْمُرْنَا " الْفَرَقَانِ : 60 وَقِيلَ : " يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ " بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ مِنَ الْقُرْآنِ . وَالجُمْلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيِ يَتَّخِذُونَكَ هُزُوًا . وَهُمْ عَلَى حَالٍ هِيَ أَصْلُ الْهَزْءِ وَالسَّخَرِيَّةِ وَهِيَ الْكُفْرُ بِاللَّهِ .

" خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ إِيَّاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ